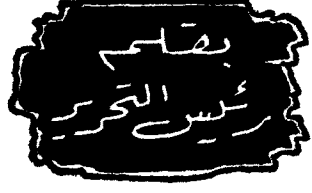


شهريات



١ . مع غسان كنفاني

حين لقيت غسان كنفاني ، للمرة الاولى ، شتاء ١٩٥٨ في الكويت ، كنت شبه مذهول بحدّة ذكائه وشدة طموحه .

وقد طرح عليّ غسان بضعة أسئلة في حديث اجراه لجريدة كويتية كان يعمل بها . واعترف انها كانت من اخرج الاسئلة التي طرحتها عليّ صحفيّ او اديب منذ اصدرت مجلة « الآداب » . وبالرغم من الضيق الذي خلفته هذه الاسئلة في صدري ، فقد تجمّلت بالصبر ، ورحت املّي الأجوبة بهدوء على ذلك الشاب الذي أحببت فيه الجرأة والحيوية وتوسّمت له شائنا في مقبلات الايام .

وجاء غسان كنفاني الى بيروت ، فتوثقت بيننا عرى صداقة لم يكن نتاجه في القصة والرواية والبحث الا ليزيدها عمقا . وفي تلك الفترة بدأ غسان يكشف صفحات رائعة من ادب المقاومة كانت هي المدخل الحقيقي للتعرف الى هذا النتاج الاصيل الذي يصدر عن ادباء المقاومة في فلسطين المحتلة . ثم اقترحت عليه ان يؤلف كتابا في الموضوع ، فوافاني به بعد فترة قصيرة ، وكان « ادب المقاومة في فلسطين المحتلة » اول كتاب جامع ، وافضل مرجع للدارسين ، من عرب واجانب ، الذين كانوا يبحثون في ادب المقاومة العربي .

وكان تكانر المهمات على غسان وعليّ يباعد ما بيننا تدريجيا ، حتى كانت تمر أشهر عديدة من غير ان نلتقي . ولكننا كنا نتحدث عبر التلفون احاديث قصيرة ، تعليقا على مقال كتبه او اثر قرأه لي .

وكان آخر لقاء لي بغسان ، يوم زارني منذ اشهر قليلة اثر خروجه من السجن ، حيث اعتقل بسبب مقال اعتبرته السلطة اللبنانية ماسّا بأحد الملوك العرب .

وقد اتى غسان يشكر لي اني ارسلت باسم اتحاد الكتاب اللبنانيين بريقة الى رئيس الجمهورية تحمل احتجاجنا على تدبير الاعتقال وتعدّه طعنة لحرية الفكر التي هي عنوان لبنان وميزته الاولى .

وقال لي غسان : ولكننا سنبقى معتقلين في ذاتنا ما دامت ايدينا مشلولة .

وسألته : هل أصبحت قريبا من اليأس ، شأن كثير من المثقفين العرب ؟

فأجاب : ان ما تقوم به فصائل المقاومة ، على قلّته وضعف تأثيره ، يحمني من اليأس .

وصمت قليلا ثم اضاف : ولكننا اذا لم نضاعف الجهد والعمل ، فسوف نموت .

ونهض يختار بعض الكتب الاخيرة التي اصدرتها دار الاداب في الفكر السياسي والايديولوجي وبعض الروايات المترجمة ، وقال وهو يغادر المكتب ، مشيرا الى الكتب بين يديه :

— هذه هي التي تدفعنا الى مزيد من الصمود ، حين تصور لنا عالما اجمل من عالمنا ، عالما نطمح الى بناء مثله .

واقترحت عليه ان ترزم الكتب التي بين يديه ، ولكنه ابي ومضى سريعا . وعند باب المصعد الذي رافقته اليه ، سقطت الكتب من بين يديه ، فانحنيت معه اساعده على جمعها . وحين استقام نظر اليّ مبتسما ، حزينا وقال :

— فعلا ، أصبحت أخشى ان تصاب يداي بالشلل ! فربتّ على كتفه وقتحت له باب المصعد ، وانا اقول له :

— عهدي بك انك بعيد عن اليأس ؟

قال غسان كنفاني :

— صحيح . يجب ان نظل بعيدين عن اليأس .

وهبط به المصعد .

حين بلغني نبأ استشهاده بانفجار سيارته فيه ، قاومت طويلا دمعته في عينيّ كانت ما تزال مترسبة منذ خمس سنوات ، منذ سمعت جمال عبدالناصر يؤكد الهزيمة في حرب ٥ حزيران .

ومع ذلك ، فقد مسح اصدقاؤك الكثيرون دموعهم يا غسان ، لانهم مؤمنون عميق الايمان بانهم يجب ان يظلوا بعيدين عن اليأس ، وان يبذلوا كل جهد يملكونه ليحولوا دون ان تصاب ايديهم بالشلل .

٢ . « ما تبقى لكم »

اعدت رواية غسان كنفاني « ما تبقى لكم » افضل انتاجه .

وقد قرانها مخطوطة حين كنت عضوا في لجنة التحكيم شكلتها جمعية اصدقاء الكتاب منذ سنوات للنظر في افضل رواية لبنانية كتبت ذلك العام .

ومنذ ايام عدت اقرأها مرة اخرى .

وانا اعتقد الآن انها ربما كانت اعلم رواية تصور مأساة فلسطين . وميزتها الاولى انها لا تعالج هذه المأساة بالسرديات التاريخية المألوف ، بل بطائفة من المواقف يعيشها الابطال رموزا بعيدة الغزى ، شديدة الابعاء . انها تصور الهجرة والنزوح ، والخيانة واليأس ، والنضال والصراع من اجل العودة ، والامل في النصر ، كل ذلك عبر احداث بسيطة ولكنها متشابكة ومتقاطعة . ونهاية الرواية، التي تروي مصرع زكريا (الخيانة) على يد مريم (فلسطين) وفي الوقت نفسه توحى بانتصار حامد (جيش التحرير) على اليهودي ، تبلغ غاية الروعة .

وفي التكنيك الروائي ، تسجل « ما تبقى لكم » خطوة جديدة هامة في تطور الرواية العربية . ان الاحداث فيها مكثفة بشكل ايحائي عميق ، وطرق السرد واساليب التحليل (الارتدادات الزمنية ، تيار الوعي ، التداعي الفكري والشعوري ، واحيانا التداعي القائم على الكلمة والحرف والرائحة واللون) كل ذلك يتخذ شكلا هندسيا على غاية التناسق والتناغم يشير الى موهبة غسان كنفاني الفنية ورؤيته الروائية التي هي نسيج وحدها في الرواية العربية . صحيح ان الشكل الذي تتبعه الرواية ليس جديدا اذا قيس بالرواية الاجنبية (فقد سبقه اليه كبار كتاب الغرب ، ولا سيما فوكنر وسارتر وداريل وسواهم) ولكن المؤلف العربي وفق الى حد بعيد في استغلال هذه الاشكال الفنية لصالح روايته استغلالا ماهرا يطمس كل نزعة تقليد او محاكاة ليؤكد الاقتناع في آخر المطاف بان الضرورة الفنية وحدها هي التي املت على غسان كنفاني هذا التكنيك الروائي البارع .

لقد فقد الادب العربي الحديث بغياب غسان ، فنانا ممتازا كان مقدرا له ان يدفع الرواية العربية شوطا كبيرا الى العالمة .

٣ . سارتر : موقف جديد !

ذات مرة ، قال لي الشاعر الصديق محمود درويش انه ياخذ عليّ . في موفي من جان بول سارتر اثر عدوانه هـ حزيران ، اني كنت انفعاليا جدا حين ابرقت الى الكاتب الفرنسي اشجب تايبده لاسرائيل واعلن عن ندمي لكوني قد ترجمت عددا من مؤلفاته الى العربية ، واعدت موقفه خيانه لمواقفه السابقة في مناصرة قضايا الحق والعدل ونضال الشعوب على اختلافها ضد الاستعمار والاحتلال .

قال لي محمود درويش : ان يكون سارتر قد ايد اسرائيل ضد العرب فهذا شأنه ، وما كان ينبغي لك ان تترك عقده الذنب تستولي عليك . ان نقل الفكر الاجنبي هو بدانه عمل كبير ، ايا كان رأينا بمواقف اصحابه . .

ثم سألني محمود : وما عسى يكون موقفك اذا تطورت افكار سارتر واصبح يشجب اعمال اسرائيل ؟

هذا السؤال الذي طرحه عليّ الصديق الشاعر ذات مرة ، اتى يفرض نفسه هذا الشهر حين اطلعتني الصديق جورج طرايشي (وقد ترجم بعض كتب سارتر) على خبر نشرته جريده « موند » (١) الفرنسية انقله فيما يلي :

القدس (من مراسلتنا) - اتارت رسالته التضامنين التي بعث بها السيد جان بول سارتر الى والده غيورانيوم المستنكف ضميريا (٢) ، هذه الرسالة التي اوردها الصحافه الاسرائيلية على نطاق واسع ، اتارت ردود فعل ، سلبية في معظمها ، تجاه الفيلسوف الفرنسي . وفي هذه الرسالة يؤكد السيد سارتر ان « المحكمة سيحقي لها الافتخار اذا برات المتهم الذي هو معرض للسجن بضعه اعوام لكونه قد قام بهذا العمل الشجاع والمحموس : ان يرفض الخدمة في جيش كان في الاصل دفاعيا ، فاصبح هجوميا اذ يؤكد نفسه جيش احتلال » ويضيف سارتر : « ان هذا العمل يفضح بذلك سياسة الحكومة الاسرائيلية التي تجعل كل مسمى حسي نحو السلام امرا مستحيلا » . وتتهم جريدة « الهيمشمار » لسان حزب المابام (الاثراكي اليساري) تتهم سارتر بانه ادان اسرائيل « على نحو ما يدينها العرب والسوفييات » وتضيف الجريدة

(١) عدد 18 حزيران (يونيه) 1972 .

(٢) Objecteur de Conscience وهو المعارض للخدمة

المسكوبة لاسباب سياسية او دينية .

« ان هذا التغير المؤسف في موقف المفكر المشهور لا يشرّفه ويثبت انه تنكر لواقفه السابقة تجاه اسرائيل التي ما تزال تناضل من اجل بقائها » .

هذا هو النبأ الذي نشرته جريدة « لوموند » ،
وسأكذب على نفسي وعلى القراء اذا زعمت اني لم
أفرح لهذا النبأ . ولكني حريص الآن على الا اكون
« انفعاليا » مرة اخرى !

لقد كنت اتوقع دائما ان يغير سارتر موقفه المؤيد
لاسرائيل . وكانت متابعتي لفكر سارتر ومواقفه تجعلني
على يقين من ان تأييده لاسرائيل قبيل عدوانها في حزيران
وبعده انما كان وليد انخداع انجرّ اليه هو ايضا مع العشرات
من المفكرين في فرنسا وفي العالم كله تحت تأثير الدعاية
الرهيبه التي قامت في تلك الفترة بأن اسرائيل معرّضة
للتدمير والزوال ، وان سكانها سيلقى بهم في البحر .
وكنت قد عبّرت لسارتر في برقيتي عن أسف المثقفين
العرب لان يكون قد سقط هو ايضا ضحية الخداع
الاسرائيلي .

ثم قرأت في « الاهرام » حديثا اجراه الاستاذ لطفي
الخولي مع سارتر في باريس (وقد نقلت « الآداب » هذا
الحديث في حينه) وفيه يحاول المفكر الفرنسي ان يشرح
موقفه ويؤكد تأييده لحق العرب في فلسطين . ولكنني
لم اقتنع بصدق هذا الموقف آنذاك ، وكنت من المطالبين
بأن يصدر سارتر بيانا صريحا تنشره الصحف الفرنسية،
مقابل البيانات التي كان قد وقع عليها بتأييد اسرائيل .

وانتظرنا طويلا ، ولكن لم نقرا شيئا صريحا عن تبدل
حقيقي في موقف مؤلف « دروب الحرية » ، بالرغم من
ان بعض الكتاب الفرنسيين وأصدقاء سارتر من العرب
كانوا يتحدثون عن ازمة ضميرية كان يعانيها سارتر من
موقفه ذلك . وكان لديّ اقتناع داخلي بأن تأثير اصدقاء
الكتاب الفرنسي من الكتاب اليهود هو الذي جعله يتخذ
ذلك الموقف . بل لقد قرأت يوما كلمة للشهيد غسان
كنفاني في « الأنوار » بان كاتبها فرنسيا يهوديا هو كلود
لانزمان ، عضو هيئة تحرير مجلة « الازمنة الحديثة » التي
يشرف عليها سارتر ، كان قد هدّده بالانتحار امام عينيه
اذا لم يوقع بيانا بتأييد عمل اسرائيل . . . وسمعت كذلك
ان سكرتيرة سارتر اليهودية كان لها تأثير عليه . واذكر
انني حاولت ان ألقى سارتر حين زار القاهرة قبل عدوان
حزيران ، ولكن كلود لانزمان الذي كان يرافقه ، وكان
يحدّد له لقاءاته ومواعيده ، حال بشتى الاساليب دون
هذا اللقاء . . .

كل ذلك كان يميل الى الاعتقاد بأن تأييد سارتر
لاسرائيل في تلك الفترة لم يكن موقفا اصيلا نابعا من

أعماقه ، بالرغم من دفاعه عن « الانسان اليهودي » ككائن
مضطهد . بل ان المواقف الاصيله عنده هي تأييد نضال
الشعوب ضد الاحتلال والاستعمار ، كما نعرف من مواقفه
من الجزائر وكوبا وفيتنام وسواها . وقد كان ذلك بالفعل
عنوان مجد سارتر كأديب ملتزم مناضل ، وكان هذا
أحد الاسباب الرئيسية التي جعلتني أقبل على ترجمة كثير
من آثاره الادبية .

والآن ، وبعد هذا الموقف الجديد الذي تكشف عنه
رسالته الى والده ذلك الشاب اليهودي المستنكف ضميريا،
اين نحن من سارتر ؟

لقد كنا نتمنى دون ريب لو تغلب سارتر ، منذ البدء،
على ذلك الانحراف الذي خضع له بدوافع لا ترتبط بأصالته
الفكرية . ولكننا سنكون من التزمت والتحجر بقدر كبير
اذا لم نرحّب بالتغير الواضح الذي طرأ على موقفه اخيرا .
ولئن كانت جريدة « هميشمار » تصف هذا التغير بأنه
مؤسف لان سارتر تنكر لمواقفه السابقة تجاه اسرائيل ،
فنحن نعتبره تغيرا مشرّفا لانه هو التغير المنتظر لفكر
وقف وما يزال يقف كثيرا من كتاباته وسلوكه تأييدا لنضال
الشعوب المظلومة والمضطهدة .

على ان ذلك لن يجعلنا نفعل الاشارة الى بعض ما في
موقف سارتر من اخطاء ورواسب . فسواء كانت الاشارة
الى ان جيش اسرائيل كان « في الاصل دفاعيا فاصبح
هجوميا » هي من تفكير سارتر ام من تفكير الشاب اليهودي
المستنكف ضميريا ، فانها تدل على خطأ كبير في فهم
تاريخ القضية الفلسطينية . ذلك ان جيش اسرائيل لم
يكن يوما جيش دفاع ، وان جميع المنظمات اليهودية التي
قامت في فلسطين قبل قيام اسرائيل كانت منظمات
ارهابية هجومية ، وان مطامع اسرائيل التوسعية تجعل
جيشها دائما جيش عدوان وهجوم . ونحن نأمل ان يتمكن
سارتر من التخلص من هذه الرواسب ، كما تخلّص من
اوهامه في تقدير موقف اسرائيل .

واذا كنا نرحب بهذا التغير في نظرة سارتر ، فلأننا
نعتبره كسبا للقضية العربية ولنضال الشعب الفلسطيني
على مستوى عالمي . ونحن من المؤمنين بان استمرار الكفاح
والمقاومة ، ومواصلة النضال على كل صعيد ، سياسي
وقتالي وفكري ، لا بد من ان تؤدي الى مزيد من المكاسب،
مهما تضاعفت النكسات الموقته والمصاعب العابرة .

سَيِّدُ دَرِينِ